السرقين والسماد

فى الزراعة قديما

لم يكن علم الفلاحة ومعاناة الأرض من العلوم التى انصرفت إليها فى الشرق أنظار العلماء والمؤلفين ، فلم يقم فى الأقطار الزراعية كالشام ومصر والعراق والأندلس من انقطع إلى الدرس والبحث فى علم الفلاحة وعنى بإذاعة تجاربه وأسراره إلا فيما ندر وقل . ومن راجع كتابى الفهرست وكشف الظنون — وهما كل ماوصل إلينا من أسماء الكتب والفنون — لايكاد يجد فيهما إلا بضعة مؤلفات تدل على قلة عناية القوم بتدوين تجارب الزراعة . ومن أشهر المصنفات فيها :

— كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية . وفى دار الكتب المصرية الجزء الأول منه رقم ٣٩ فى ٣٥ ورقة ، كتب فى ٢٢ رجب سنة ٩٩٥

— كتاب الفلاحة اليونانية لقسطا أو قسطوس بن لوقا الرومى ، طبع فى المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٣ للهجرة

— كتاب الفلاحة للروم لعلى بن محمد بن سعد ، ذكره ابن النديم

— كتاب الفلاحة لابن العوام الإشبيلى . طبع فى مجريط (مدريد) سنة ١٨٠٢ وفى مصر

— كتاب الدر الملتقط ، من علم فلاحى الروم والنبط ، تأليف محمد بن أبى بكر بن أبى طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى المعروف بشيخ حطين رقم ٢١ فى مكتبة الدار المصرية ، فيه لغاية الباب التاسع والعشرين ٦٤ ورقة

— كتاب بغية الفلاحين فى الأشجار المثمرة والرياحين تصنيف السلطان الملك الأفضل العباس ابن الملك المجاهد على ابن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور عمر بن على بن رسول . ناقص من آخره قليلا . ذكر أنه نقله واستخرجه من مطالعة الكتب المدونة فى الفلاحات ، وسمى منها الكتاب الموسوم بالإشارة فى العمارة تصنيف والده ، و كتاب ملح الملاحة فى معرفة الفلاحة لجده الملك الأشرف . وفى دار الكتب المصرية نسخة من بغية الفلاحين رقم ١٥٥ ، فى ١٦٤ ورقة فيه إلى الباب السادس عشر . وفى خاتمته فوائد زراعية يمنية . ويظهر أن المؤلف توفى سنة ٧٧٨ للهجرة

— كتاب الفلاحة المنتجة لطيبنا الجركلشى منه نسخة حسنة فى دار الكتب المصرية رقم ٢١٩ فى ١١٨ ورقة ، وفى خزانة باريس نسختان منه رقم ٢٨٠٧ و ٢٨٠٨

— كتاب الفلاحة لأبى عبد الله محمد بن الحسين رقم ٤٧٤٦ فى خزانة باريس

— كتاب مفتاح الراحة فى علم الفلاحة رقم ٢٣٧ فى مكتبة الدار المصرية وأوراقه ١٨٩ ، وأكثره منقول من كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية

— كتاب جامع فرائد الملاحة فى جوامع فوائد الفلاحة لرضى الدين الغزى رقم ١٣٤ فى دار الكتب المصرية ، ١١٧ ورقة وفيه فوائد كثيرة

— الفن الرابع فى النبات والزراعة والفلاحة فى تسعة أبواب من كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر لجمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الوراق المعروف بالوطواط . ومنه ثلاث نسخ فى دار الكتب المصرية ، إحداها مصورة فى ثلاث مجلدات رقم ٣٥٩ . وهو ينقل عن ابن بصال فى كتاب الفلاحة الرومية ، وعن كتاب النبات لأبى الخير الأندلسى ؛ قال : وهو غريب جدا لم أجد من رآه . وينقل أحيانا عن كتاب ابن الوحشية وكتاب الفلاحة المصرية

— علم الملاحة فى علم الفلاحة للشيخ عبد الغنى النابلسى ، طبع فى مطبعة نهج الصواب بدمشق سنة ١٢٩٩ ، اختصره من كتاب الغزى المتوفى سنة ٩٣٥ السابق الذكر

— عمدة الصناعة فى علم الزراعة لعبد القادر الخلاصى من القرن الثانى عشر

وقد طالعنا كل ما وجدناه من هذه المؤلفات فى دار الكتب

المصرية فوجدنا كتاب ابن العوام أجودها وأعمها وأجدرها بالمراجعة والاعتبار . وقد استوفى فيه كل ما كان مألوفا فى زمانه من علاج الأرضين وزراعة البقول والحبوب وغراس الأشجار وتربية الحيوانات والدواجن ، وروى كل مايتعلق بهذه الأبواب علما وعملا ؛ فهو خير ما يعتمد عليه فى هذا الدرس وفيه فوائد وفرائد توضع عليها اليد وتعد ذخرا للزراع والأكار

ومعلوم أن الأسمدة التى هدت إليها الكيمياء ونبهت على خصائصها وفضائلها فى إنعاش الأتربة وتعويض ما تفقده من المواد والقوى فى تغذية النباتات وتثمير الأشجار لم تكن معروفة فى أوربة قبل القرنين الأخيرين؛ فكان الأكرة ورجال الفلاحة لا يعرفون إلا السرقين لإصلاح الأرضين وإزكاء الزروع ولذلك قال الخارزكى

لا أغرس الغرس إلا فى مسرقنة ... والغرس أجود ما يأتى بسرقين (١)

وقد فرقت كتب اللغة بين السرقين والسماد ؛ فالسرقين هو الزبل والروث وحده. وأما السماد، فالسرقين مخلوطا برمل وتراب. وجاء الدمال بمعناه وبمعنى السرقين: يقال دمل الأرض إذا أصلحها أو سرقنها . ومن مزاعمهم فى التقاليد المروية عن محمد بن على بن عبد الله أن « أول من دمل الأرض أى ألقى فيها السماد داود عم » (٢) . ويحكي الأصبهانى أن أول من جمع السماد بالبصرة وباعه هو عيسى بن سليمان بن على العباسى من بيت الخلافة حينما كان أمير البصرة « وكانت له محابس يحبس فيها البياح ويبيعه فقال فيه أبو الشمقمق :

إذا رزق العباد فإن عيسى ... له رزق من « الحجاز » العباد

فلما تزوج عيسى فاطمة بنت عمرو بن حفص قال محمد بن عيينة فى ذلك :

أفاطم قد زوجت عيسى فأبشرى ... لديه بذل عاجل غير آجل
فإنك قد زوجت من غير خبرة ... فتى من بنى العباس ليس بعاقل
فإن قلت من رهط النبى فإنه ... وإن كان حر الأصل عبد الشمائل
رأيت أبا العباس يسمو بنفسه ... إلى بيع بياحاته والمباقل (٢)

ولم ترد لفظة البياح فى المعجمات ولا فى تكملة دوزى .

(١) معجم البلدان ٢ : ٣٨٨
(٢) الأعلاق النفيسه لابن رسته ١٩٨

وإنما جاء البياحة شبكة الحوت ، وبعد طول البحث والتنقير وفقنا للعثور على الحديث الآتى فى كتاب البخلاء للجاحظ قال :

« حدثنى إبراهيم بن عبد العزيز قال : تغديت مع راشد الأعور فأتونا بجام فيه بياح سبخى الذى يقال له الدراج ، فجعلت آخذ الواحدة فأقطع رأسها ثم أعزله ، ثم أشقها باثنين من قبل بطنها فآخذ شوكة الصلب والأضلاع فأعزلها، وأرمى باقى بطنها وبطارف الذنب والجناح، ثم أجمعها فى لقمة واحدة وآكلها » (٣)

ولاشك أن هذا الوصف هو وصف سمك كان بالبصرة تجمع رذالته ونفايته ومايرمى به من شوكه وأضلاعه وأطرافه وتحفظ فى محابس لها حتى يغلب عليها العفن ، فتباع على البساتين كالسماد. ومن ثم تكون البياحات فى حكاية الأصبهانى المواقع التى يحبس فيها البياح والسماد . وهذا أقرب ما يبدو لنا فى تفسير هذه الكلمة الغريبة

وقد فاتنا لا محالة كثير من اختبارات الأكرة وأرباب الضياع والبساتين وفنون علاجهم للأرض وتنميتهم للبقول والأزهار والأثمار . وتكفى مطالعة كتاب ابن العوام الآنف الذكر لمعرفة ما كان لبعض مصطلحاتهم وطرائقهم من الشأن والقيمة . ومن بعض الأدلة عليها تنبههم إلى ما فى الدماء والأبوال من القوة والدواء لإصلاح الأرض لما فيهما كما هو معلوم اليوم من الأزوت والنترات ، فأشاروا بهما لطب النباتات والمغروسات. قال ابن العوام : « وقد يعالج بعض أدواء النبات بدماء وأبوال لأن للدماء قوى عجيبة فى إنعاش بعض الشجر والنبات » . (٤) ولكن فاته أن ينبه على وجوب تجفيف الدم قبل استعماله

وقد راجعنا مقالاتهم فى أنواع السرقين والمفاضلة بين ذرق الحمام وأرواث الخيل والبغال والحمير ، وأخثاء البقر والجواميس وأبعار الغنم والضأن والماعز ، فإذا أفضل الأزبال عندهم ذرق الحمام ، واختلفوا فى ما يتلوه فى الجودة فقدم بعضهم زبل الحمير على روث الخيل ثم زبل الغنم ثم زبل البقر . ونقلوا عن قسطوس أحد علماء الفلاحة ، وهو قسطا بن لوقا ، أنه قال : « أحسن زبل الطير ذرق الحمام فبحرارته يحيى الأعشاب؛ ثم زبل الحمير ثم زبل

(٣) كتاب البخلاء ١٦٤
(٤) كتاب الفلاحة لابن العوام ، طبعة مدريد ، ١٠٦ .

الثمن ثم زبل البقر ، وأنفع الأزبال الصــــامة للنبات زبل الخيل والبراذين » .(٥) وهذا الرأى هو الشائع اليوم فى تفضيل روث الخيل للمزروعات عامة .

وهنالك سرقين آخر أشادوا بجودته ، وأجمعوا على إيثاره والمغالاة فيه وهو ماتستميح القارئ أجمل العذر فى التصريح به ، وقد سبق الإيماء إليه فى بيت الشمقمق ويسمونه الروث الآدمى وزبل الناس . ومن غريب ماعرف به أيضــــا ولم نره إلا مرة واحدة اسم « قوسان » نقله ابن الأخوة فى كلامه على حسبة الفاخرانيين والقصــارين فقال : « يشرط عليهم ألا يقدوا على الكوز بقوســان وهو روث الآدمى ولا بشىء من الأزبال فإنه نجس؛ بل بالحلفاء والقيشة وهى قشر الأرز وما أشبهه»(٦).

ومن أشهر أسمائه أيضا الغائط والنجو والعذرة . وإنما الغائط المكان المطمئن . وكانوا إذا أرادوا الخلاء انحدروا إلى الغيطان أى بطون الأرض تسترا وانتباذا . وكثر ورود الغائط فى كلامهم فانتقل اسمه إلى الحدث نفسه واشتقوا منه الفعل تغوط ، كما انتقل اسم الحش وهو فى الأصل البستان إلى بيت الخلاء لأنهم اعتادوا أن تبرزوا فى البساتين (٧) . وأما النجو فهو الارتفاع من الأرض وكان الرجل إذا خرج لقضاء الحاجة يتستر بنجوة فقالوا من ذلك ذهب ينجو كما قالوا ذهب يتغوط إذا ذهب إلى الغــائط لذلك الأمر (٨) . وأما العذرة فهى فناء الدار وكانوا إذا قضوا حاجتهم ألقوها فى الأفنية فأطلق اسم المحل على الحال

وفى أخبارهم عن هذا السماد الآدمى من النكات والمضحكات وهجون العادات والحكايات الغريبة مايدخل فى أوصاف الحضارة وتاريخ الفلاحة، ولذلك لم نتوقف عن رواية بعضها بعد اطراح مالا يجمل ذكره واستبدال ما يقبح التصريح به من ألفاظه المبتذلة الفاحشة

وقد عده ابن العوام بعد ذرق الحمام فى الجودة والامتحان للأرض والمنابت كلها(٩) . ووصف أيضا كيف يعمل به قبل الاستعمال له فقال : « ينبغى أن يجفف من رطوبته الأولى الأولى حتى يكمل جفافه ويسود ثم يجمل فى الحمائر ويرش عليه الماء العذب ثانية ويحرك تحريكا كثيرا ويخلط حتى يختلط ويجفف حتى يجف جفافا جيدا ثم يخلط به رماد » (١٠)

وكان لأصحاب البساتين طلب عليه شديد وتنازع متواصل « فلا يسألون تسميد بقولهم قبل نجومها وتفتق بزورها ولا بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللب منها، حتى ربما ذروا عليها السماد ذرا ثم يرسل عليها الماء حتى يشرب موضع اللب قوى العذرة . بل من لهم بالعذرة وعلى أنهم ما يصيبونها إلا مغشوشة مفسدة ، وكذلك صنيعهم فى الريحان ، فأما النخل فلو استطاعوا أن يطلوا بها الأجذاع طليا لفعلوا . »(١١)

ومما يدل على الاعتقاد الشــائع فى أثر هذا السماد البشرى نكتة رواها البلاذرى عن معاوية بن مروان وكان محمقا قال : « مر بحقل وقد سمع أهل الشام يقولون لايفلح حقل لايرى «عجز» صاحبه فنزل وأحدث . »(١٢) ومن أهزل الأبيات التى قيلت فى هذا المعنى مارواه أبو الفرج الأصبهانى قال :

« اجتمع جيفران الموسوس ومحمد بن بشير فى بستان فنظر إلى محمد بن بشير وقد انفرد ناحية ثم قام عن شىء عظيم خرج منه فقال جيفران :

قد قلت لابن بشير لما رمى من عجانه
فى الأرض تل سماد عــــلا على كثبانه
طوبى لصاحب أرض « خلوت » فى بستانه(١٣)

وكانت البصرة فيما قيل أشهر أسواق السرقين، وأميرها كما سبق كان ممن يتجر به « وللحشوش فيها أثمان وافرة ولهــا فيما زعموا تجار يجمعونها . فإذا كثرت جمع عليها أصحاب البساتين ووقفهم تحت الريح لتحمل نتنها إليهم فإنه كلما كانت أنتن كان ثمنها أكثر، ثم يتنادى عليها فيتزايد الناس فيها. وقد قص هــذه القصة صريع الدلاء البصرى ... ولذلك ذم الشعراء البصرة

٥) كتاب الفلاحة لابن العوام ، طبعة مدريد ١٠٠
٦) معالم القربة فى أحكام الحسبة ، طبعة كيمبردج ، ٢٢٣
٧) النهاية فى التعريض والكناية للثعالبى ٣٤ — ٣٥
٨) كتاب الحيوان للجاحظ طبعة مصر ١٣٢٣ ، ج١ ، ١٦٢—١٦٣
٩) كتاب الفلاحة لابن العوام ١٠٠

١٠) كتاب الفلاحة لابن العوام ١٠٥
١١) كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦
١٢) أنساب الأشراف : ٥ : ١٦٤ — ١٦٥
١٣) الأغانى ١٢ : ١٤٠ — ١٤١

وأهلها فقال محمد بن حازم الباهلي (في هجاء البصرى) :

يمتن « نجوه » كما يغالى به عند البايعة التجار (١٤)

ومن النوادر المروية عن البصرة « دخل فتى من أهل مدينة البصرة فلما انصرف قال له أصحابه : كيف رأيت البصرة ؟ قال : خير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس . أما الجائع فيأكل خبز الأرز والصحناة فلا ينفق فى شهر إلا درهمين . وأما الغريب فيتزوج بشق درهم . وأما المحتاج فلا عليه غائلة مابقيت له عجزه ، « يحدث ويبيع » (١٥)

واشبهت أصبهان البصرة فى نفاق الحشوش فيها « فإن قيمتها عندهم وافرة » قال ياقوت : حدثنى بعض التجار قال : رأيت بأصبهان رجلا من التناء يطعم قوما ويشرط عليهم أن يتبرزوا فى خربة له قال : واقد اجتزت به مرة وهو يخاصم رجلا وهو يقول : كيف تستجيز أن تأكل طعامى وتفعل كذا عند غيرى — ولا يكنى — ولبعض الشعراء فى ذم أصبهان وأهلها أبيات قال فيها أن ليس للناظر فى أرجاء أصبهان من نزهة تحيي القلوب غير أوقار المذرة (١٦) ومن أقبح ما وصف به أيضا أهل أصبهان قول أبي القاسم البغدادى :

« يحملون « نجوهم » على رؤوسهم وعلى ظهور دوابهم إلى بساتينهم فينجسون به الأنهار ويربون به الثمار ويأكلونها . أى لعمرى هو « نجوهم » منهم بدا وإليهم يعود وهم أحق به . بلدة حشوشها فى المسابل وطرقها كالمزابل . لايوجد بهاذو كرم ولا نائل » (١٧)

وعيبت مدينة توزر فى إفريقية « بأن أهلها يبيعون مايتحصل فى مراحيضهم من رجيع الناس يفخلون به بقولهم وبساتينهم ولكنهم لا يرغبون فيه إلا إذا كان جافا فيحملهم ذلك على عدم الاستنجاء فى مراحيضهم، ويخرج أحدهم من بيته حتى يأتى القناة فيستنجى من مائها وربما اتخذ أحدهم المراحيض على قارعة الطريق للواردين عليها ليأخذ مايتحصل من ذلك ويبيعه . »(١٨)

ولذلك قال الجاحظ : « من أكرم سمادهم الأبعار كلها والأخثاء . إذا جفت ، وما بين التلط جافا والخثاء وبين المذرة جافة ويابسة فرق » (١٩)

وأقبح ما هنالك ما كان يجرى فى قابس « فإن أكثر دورهم لا مذاهب فيها وإنما يتبرزون فى الأفنية فلا يكاد أحدهم يفرغ من قضاء حاجته إلا وقد وقف عليه من يبتدر أخذ ماخرج منه لطعمة البساتين، وربما اجتمع على ذلك النفر فيتشاحون فيه فيخص به من أراد منهم، وكذلك نساؤهم لا يرين فى ذلك حرجا عليهن إذا سترت إحداهن وجهها ولم يعلم من هى » (٢٠)

وأشد ما كان الطلب على السماد فى بغداد حتى بعث الطمع بعض أصحاب الرباع على احتكار ما كان يلقى على الكساحة والزابل ، قال بعضهم : نزلنا دارا بالكراء للكندى فكان فى شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونشوار الملوفة » (٢١)

ولابن السميسر فى بلنسية Valence وهى من أهم مغارس النارنج والبرتقال فى إسبانية تطيف بها منهما حدائق وبساتين ملء البصر :

بلنسية بلدة جنة وفيها عيوب متى تختبر
فخارجها زهر كله وداخلها برك من قنذر (٢٢)

ومن الغريب جدا أن يتنازع الناس إلى هذا الحد القبيح أوقار الأقذار! فهل كان سرقين الحيوانات دون الكفاية ؟ ولعل أقرب ما يعلل به هذا الطلب الشديد أن الأبعار والأخثاء كانت تجفف وتدخر للوقود ولا سيما فى البلاد التى قلت فيها الأحراج والغياض وتعددت الحمامات كما أشار إليه صاحب كتاب البخلاء حيث قال : « أما الفرث والبعر فحطب إذا جفف عجيب » (٢٣) ولا شك أن مثل هذه العادة كانت فى الشرق معروفة شائعة منذ القدم؛ ولا تزال متبعة فى القرى والجبال إلى اليوم، وقد ألمح إليها الشعراء ، قال الهذلى :

١٤) معجم البلدان ١ : ٦٤٧
١٥) معجم البلدان ١ : ٦٤٧
١٦) معجم البلدان ١ : ٣٩٤ — ٢٩٥
١٧) حكاية أبي القاسم البغدادى ٢٢
١٨) صبح الأعشى ٥ : ١٠٦
١٩) كتاب الحيوان للجاحظ ١ : ١١٦
٢٠) معجم البلدان ٤ : ٤
٢١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣ : ٢٥٩
٢٢) معجم البلدان ١ : ٧٣٣
٢٣) كتاب البخلاء ٧٨

وليلة يصطلى بالفرث جازرها
يختص بالقرى المثرين داعيها [٢٤]
وللأخطل في إحدى نقائضه
صفر اللحى من وقود الأدخنات إذا
رد الرفاد وكف الحالب القرر

يقول هم صفر اللحى من الدخان، والأدخنات السرقين، والرفاد قدح ضخم، والقرر جمع قرة وهي البرد [٢٥].

وفيما عدا الوقود للاصطلاء كان السرقين يحمى به الحمامات وأتانين الملال صانع خبز المة وتنانير الخبز [٢٦]. ومن مآثر طاهر بن الحسين أنه رأى يوما في قصره ببغداد « دخانا مرتفعا كريه الرائحة فتأذى به فسأل عنه فقيل له إن الجيران يخبزون بالبعر والسرجين فقال: إن من اللؤم أن نقيم بمكان يتكلف الجيران شراء الخبز ومعاناته .. اقصدوا الدور واكسروا التنانير واحصوا جميع من بها من رجل وامرأة وصبي وأجروا على كل واحد منهم خبزه وجميع ما يحتاج إليه .. فسميت أيامه « الكفاية » [٢٧]

وعزم أحد الخلفاء العباسيين على الشرب يوما واستنكف من رؤية الرجيع واستنشاقه بين أزهار البستان؛ فزينت له أنفته أن يستعيض عنه بمالا يخطر إلا في أذهان الملوك وهو ما رواه التنوخي قال:

« أراد المقتدر الشرب على نرجس في بستان في صحن دار من صغار صحونه فقال بعض من يلي أمر البستان: سبيل هذا النرجس أن يسمد قبل شرب الخليفة عليه بأيام فيحسن ويقوى، فقال هو: ويلك يستعمل « الرجيع » في شيء بحضرتي وأريد أن أشمه. قال: بهذا جرت العادة في كل ما يراد تقويته من الزروع، فقال: وما العلة؟ قال: لأن السماد يحميه ويمينه على النبات والخروج، قال: فنحن نحميه بغير السماد. وتقدم فسحق من المسك بمقدار ما احتاج إليه البستان من السماد ورمد به وجلس يشرب عليه يومه وليلته واصطبح من غده عليه، فلما قام أمر بنهبه فانتهب البستانيون والخدم ذلك المسك كله من أصول النرجس واقتلعوه مع طينه حتى خلصوا المسك فصار البستان قاعا صفصفا، وخرج من المال شيء عظيم كثير في ثمن ذلك المسك » [٢٨]

باريس — السوربون — شاكر محمود

٢٤) كتاب الحيوان ٦ : ١٩٦
٢٥) النقائض، طبعة بيروت، ١٦٥٠
٢٦) كتاب الحيوان ١ : ١١٦
٢٧) معجم البلدان ٢ : ٢٥٦
٢٨) نشوار المحاضرة ١ : ١٤٤

مطبوعات المجمع العراقي

تاريخ العرب قبل الاسلام

أوسع كتاب في تاريخ العرب قبل الإسلام
جمع من الكتابات العربية الجاهلية ومن
النصوص الكلاسية والتوراة والتلمود

تأليف الدكتور

جواد علي

طبع عام ١٩٥١